مُقَدِّمَة

الحمد لله وكفى ، وصلاةً وسلامًا على عباده الذين اصطفى ، والصحب والآل ومن اقتفى، وبعد :

لم يحظَ أسلوب التعليل باهتمام الباحثين إلا قليلًا . ذلك مما أثار في نفسي أن أخوضَ غماره ، وأسبُرَ أغواره ؛ ليكون البحث محاولةً لتكميل ما درسوا ، وخطوة لإتمام ما أسسوا ؛ خدمةً للغتنا العربية التي كرَّمها الله بكونها لغة القرآن الكريم ، فكرَّمنا بذلك .

لقد عالج النحاة العرب أسلوب التعليل على هامش عنايتهم بالأثر الإعرابي لأدواته ؛ ففي الكتاب تحدَّث سيبويه عن هذه الأدوات عند حديثه عن إفادة اللام وحتى وكي للتعليل، وعقد لها بابًا سمَّاه : (باب الحروف التي تُضمَر فيها(أَنْ))[1] ، كما تحدَّث -أيضًا- عن مواضع ورود فاء السببية في السياق نفسه[2] . وجاء من بعده من يقفو أثره ، ويتبع منهجه في ذلك ؛ فهذا المبرِّد في المقتضب يتحدث عن التعليل في سياق حديثه عن الحروف التي تنصب الأفعال[3] .

وعلى ذلك درج السالكون من بعدهما ؛ كابن يعيش في شرحه للمفصَّل[4] ، وابن الحاجب في كافيته[5] ، وغيرهما من متقدِّميهم ومتأخريهم .

---

(1) الكتاب : سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط٣ ، (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م) : ٣ / ٥ : ٨ ، ١٦، ١٧ .

(2) المصدر نفسه : ٣ / ٢٨ .

(3) المقتضب : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (٢١٠ - ٢٨٥ هـ) ، تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة ، لجنة إحياء التراث الإسلامي بوزارة الأوقاف ، القاهرة ، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م) : ٢ / ٦ : ١٤ ، ٣٧ : ٤٠ .

(4) شرح المفصل : موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي ، ت : ٦٤٣ هـ ، إدارة الطباعة المنيرية بمصر ، (بدون تاريخ) : ٩ / ١٤ .

(5) شرح الرضي على الكافية : رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي النحوي (ت٦٨٨هـ) ، تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة قان يونس ، بني غازي - ليبيا ، ط٢ (١٩٩٦م) : ٤ / ٤٨: ٦٢ .

ومن الكتب ما تناول الأداة التي أفادت التعليل أو السببية بالحديث عنها ضمن حديثه عن الأدوات ؛ نحو : سر صناعة الإعراب لابن جني ، وحروف المعاني للزجَّاجي ، ومعاني الحروف للرمَّاني ، والأُزهِيَّة في علم الحروف للهروي ، والجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري ، ورصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي ، وما سواها من الكتب التي عُنيت بالحديث عن معاني الحروف .

ومن هنا تتبدَّى لنا الحاجة إلى دراسة أسلوب التعليل دراسة مستقلة تتعمق في تراكيبه، وتكشف النقاب عنه في صوره المختلفة ، وهو ما تسعى هذه الدراسة إلى تحقيقه .

ومن الدراسات الحديثة التي تناولت التعليل النحوي في بحث مستقل : تلك الدراسة التي قام بها الدكتور محمد مصباح أحمد بعنوان (أدوات التعليل في النحو العربي جمعًا ودراسةً)؛ وقد رغب الباحث في جمع الأدوات التي تفيد التعليل ، ودراسة أقوال النحويين وآرائهم في أدائها لهذا المعنى .

أمَّا عن بحثنا هذا -صور التعبير عن العلة والسببية في القرآن الكريم- فإنه قد عُنِي بدراسة جميع الوسائل التي تُؤدَّى بها وظيفة التعليل داخل الجملة أو التركيب إمَّا بإحدى أدوات التعليل المعروفة ؛ حرفًا كانت أم اسمًا ، أو بغير أداة تؤديها كما في التعليل بالجملة ، والمعوَّل في ذلك على السياق الذي حمل لنا تلك العلة ؛ لتعيين الوسيلة . وهو يعرض الصور والأنماط التي يؤدَّى بها التعليل من خلال نص القرآن الكريم ومن خلال أقوال المفسرين والنحاة ، ويدرس ما يقوم بينها من علاقات ، ويُعنَى بإبراز الخصائص الدلالية والنحوية لتراكيب التعليل في القرآن الكريم . وبذلك يتخذ البحث المنحى التطبيقي إلى جانب ما يلزم من الجانب النظري .

وجدير بالذكر أن الجملة التعليلية هي جملة استئنافية في اللفظ مراد بها التعليل في المعنى ، فهي لا تشغل عند النحاة موقعًا إعرابيًا ، وعدُّوها مستأنفة فُصِلت عما قبلها نحويًّا رُغم ارتباطها به دلاليًّا ، وإشارات النحاة والمفسرين إلى التعليل في هذه الجمل هي إشارة إلى معنى

وليس إلى وظيفة نحوية . بينما تتضافر جملة التعليل مع ما قبلها لتحقيق ترابط النص لاعتمادها على علاقة معنوية (دلالية) ترتبط بما قبلها .

وأستطيع بهذا البحث أن أطرح تساؤلًا : قياسًا على إعراب بعض الجمل حالًا وبعضها نعتًا ، فلماذا لا تُعرَب الجمل الاستئنافية الواقعة تعليلًا في محل نصب مفعولًا له ؟

فالحال والنعت عندما يقعان جملةً يُقال إنها حلت محل مفرد لذا لها موقع من الإعراب، فلماذا لا يُعَامل المفعول له بالمثل عندما يكون جملة ؟

وغاية ما تقدَّم أن أبيَّن أن هذه الدراسة لم تكن بمعزِل عمَّا تقدَّمها من دراسات بل أفادت وأضافت .

ويستمد هذا البحث قوته من القرآن الكريم ، الذي هو لُحمة البحث وسَداه ؛ فقد كان في هذا البحث شرف العيش مع كتاب الله أوقاتًا من أمتع الأوقات وأروعها سعيتُ من خلالها أن أفتش في بطون كتب التفسير عن المعاني الخفية للتراكيب ؛ كتفسير القرطبي ، والكشاف للزمخشري ، والمحرَّر الوجيز لابن عطية الأندلسي ، والبحر المحيط لأبي حيان ، والدر المصون للسمين الحلبي ، والتحرير والتنوير لابن عاشور ، وغيرها . فوجدت عجبًا في هذا النص العظيم الذي لا تنقضي عجائبه ولا يبلى على كثرة الرد .

وجاء البحث في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ؛ فتناولت في التمهيد التعليل والعلة والسبب لغةً ، كما تناولتها في الاصطلاح ، وحددتُ المقصود بالتعليل بالسبب والتعليل بالغرض (العلة الغائية) . وتناولت فيه أيضًا اصطلاح العلة والسبب في الاستعمال اللغوي .

وجاء الفصل الأول مختصاً بالتعليل بالحروف ؛ بدأ بالتعليل بالحروف الأحادية : (الباء ، الفاء ، اللام ، الكاف ، الواو) ، ثم التعليل بالحروف الثنائية فضمَّ الحروف الآتية : (إذ ، أنْ، أو ، عن ، في ، كي ، من) ، وتلاه التعليل بالحروف الثلاثية وكان بالحروف الآتية : (إذن ، إنَّ ، أنَّ ، على ، كما) ، ثم بعد ذلك التعليل بالحروف الرباعية وهي : (حتَّى ، كأنَّ ، لعلَّ) . ووضَّحت خلال ذلك كله ما لم يكن فيه تعليل وادُّعِي له ذلك .

واختصَّ الفصل الثاني بالتعليل بالأسماء ؛ فكان التعليل بالمفعول له (المصدر الصريح) ، والتعليل بالمصدر المؤوَّل وهو ما كان مسبوكًا من (أنْ والفعل) أو من (أنَّ واسمها وخبرها) .

وتناولت في الفصل الثالث التعليل بالجمل ؛ فجعلتها على أربعة أقسام : جمل التعليل الخبرية المصدَّرة بأداة ، وجمل التعليل الخبرية غير المصدَّرة بأداة ، وجمل التعليل الطلبية المصدَّرة بأداة ، وجمل التعليل الإنشائية غير الطلبية .

وانتهيت من ذلك كله إلى خاتمة للبحث ذكرت فيها أهم النتائج التي خرجت بها .

واللهَ أسألُ أن يجعل ذلك في ميزان حسناتي يوم ألقاه وفي ميزان حسنات أستاذي الكريم الدكتور محمد عبد الله جبر لما أولاني والرسالة من عناية ومتابعة ، ولما منحني من وقت وجهد في توجيهي وإرشادي والأخذ بيدي إلى ما فيه الخير ، فحفظه الله وأمدَّ في عمره في طاعة وحسن عمل .

وبعد .. فإن هذا البحث محاولة أولى ، إن وُفِّقتُ فيها فبتسديد من العليم الخبير ، وذلك أملي ورجائي ، وإن قصرت عن ذلك فحسبي أني حاولت ...

والله ولي التوفيق

obeikandl.com

تمهيد

التعليل والعِلَّة والسبب لغةً :

"التعليل سقي بعد سقي ، وجني الثمرة مرة بعد أخرى ...وتعلَّلَ بالأمر واعتلَّ تشاغل...وعلَّله بطعام وحديث ونحوهما شغله بهما ..."[١].

وللعِلَّة في اللغة أكثر من معنى نذكرها في ما يأتي ، فهي[٢] :

١- معنى يَحُلُّ بالمحل فيتغير به حالُ المَحَلِّ .

٢- المرض : عَلَّ الرجل يَعِلُّ- بالكسر - فهو عليل ، وأَعَلَّه الله تعالى أي أصابَهُ بعِلَّةٍ ، فهو مُعَلٌّ وعَلِيلٌ .

٣- الحدث : يشغل صاحبه عن وجهه أو حاجته .

٤- توضَعُ مَوْضِعَ العُذْرِ ، فقد قيل : "ما علتي وأنا جَلْدٌ نابِل"[٣] ، أي : ما عذري في ترك الجهاد ومعي أُهْبَةُ القتال ، فوضعت العِلَّةُ موضع العذر . وفي المثل : "لا تَعدَمُ خَرْقاءُ عِلَّةً"[٤] يُقَال هذا لكل من يعتَلُّ ويعتذر وهو يَقْدِرُ ، وفيه أيضًا "لا يعدَمُ مانعٌ عِلَّةً : يُضرَب لمن يعتلُّ فيمنع شحًّا وإبقاءً على ما في يده"[٥] كما يُقال : "لا عِلَّةَ ، لا عِلَّةَ هذه أوتادٌ وأَخِلَّةٌ : يضرب لمن يعتل بما لا علة له فيه"[٦] .

والمُعلِّلُ دافع جابي الخراج بالعلل .

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس : محبُّ الدين أبو الفيض الحسيني الزبيدي(ت ١٢٠٥هـ) ، ط١، المطبعة الخيرية - مصر (١٣٠٦هـ) : ٨/ ٣٣ .

(٢) تاج العروس : ٣٢/٨-٣٣ ، لسان العرب : ابن منظور ، تحقيق : عبد الله الكبير - هاشم الشاذلي - محمد حسب الله ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ : ٣٠٧٨ - ٣٠٨١ مادة (علل) .

(٣) لسان العرب : ٣٠٨٠ مادة (علل).

(٤) جمهرة الأمثال : أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط١ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) : ٢ / ٢٩٧ .

(٥) مجمع الأمثال : أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني (ت ٥١٨هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السنة المحمدية (١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م) : ٢ / ٢٢٦ .

(٦) مجمع الأمثال : ٢ / ٢٢٧ .

obeikandl.com

٥- قد ترادف العلةُ السببَ ، فيُقال هذا علةٌ لهذا أي سببٌ له . جاء في اللسان : "هذا علة لهذا ، أي : سبب ، وفي حديث عائشة : فكان عبد الرحمن يضرب رجلي بعلة الراحلة ، أي : بسببها ، يُظهِر أنه يضرب جنب البعير برجله وإنما يضرب رجلي ... "[١] .

ولعلَّ المعنى الأول ؛ وهو أن العلة معنى يحل بالمحل فيتغير به حال المحل ، هو مدار المعاني الأخرى والمشترك فيها ؛ فالمرض سُمِّيَ علةً "لأن بحلوله يتغير الحال من القوة إلى الضعف"[٢] .

والعلة الحدث الشاغل ، إذ صار شغلًا ثانيًا منع صاحبه عن شغله الأول[٣] ، فتغير حاله بحلوله .

أما العلة بموضع العذر فلأن العذر حل بالمعتذِر فغيَّره عما اعتذر منه .

وأما مرادفتها للسبب فلأن السبب هو "ما يُتوصَّل به إلى غيره"[٤] ، وهذا المعنى الأخير استعير من الحبل الذي يُتوصَّل به إلى الماء ، ثم استعير لكل ما يُتوصَّل به إلى شيء[٥]، فبوجود الحبل (السبب) يحصل التوصل إلى الماء فيحدث تغيير .

جاء في تاج العروس نقلًا عن خالد بن جنبة : "ولا يُدعَى الحبلُ سببًا حتى يُصعَد به ويُنحدَر به"[٦] وفي الصعود والانحدار تغير إلى ما يُصعَد أو يُنحَدَر إليه ، وإنما يحصل ذلك بوجود السبب (الحبل) ومن ثَمَّ فبالسبب يحل تغير ، لأن به يحدث التوصل .

العِلَّة والسبب اصطلاحًا :

يصلح تعريف بعض المحدثين للعلة النحوية أن يكون تعريفًا للتعليل النحوي ، قال : "يُراد بالعلة النحوية تفسير الظاهرة اللغوية ، والنفوذ إلى ما وراءها ، وشرح الأسباب التي جعلتها على ما هي عليه ، وكثيرًا ما يتجاوز الحقائق اللغوية ويصل إلى المحاكمة الذهنية الصِّرف"[٧] .

---

(١) اللسان : ٣٠٨٠ مادة (علل) .

(٢) تاج العروس : ٨ / ٣٢ .

(٣) تاج العروس : ٨ / ٣٢ .

(٤) المصدر نفسه : ١/ ٢٩٣ .

(٥) تاج العروس : ١/ ٢٩٣ .

(٦) المصدر نفسه : ١ / ٢٩٣ .

(٧) أصول النحو العربي : محمد خير الحلواني ، ط٢ ، الناشر الأطلسي ، الرباط (١٩٨٣م) : ١٠٨ .

والتعليل في مراحله المتقدمة كان يتمثل في البحث عن الأسباب التي تكمن وراء الظاهرة اللغوية والقاعدة النحوية ، وهو تعليل بسيط ؛ فتعليل الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) مثلًا كان بحثًا خالصًا عن السبب ، وقد يمكن - كما يرى هو رحمه الله - إيجاد عِلل غيرها أكثر صوابًا وصحَّةً منها ؛ إذ "سُئِل عن العِلل التي يُعتَلُّ بها في النحو فقيل له : عن العرب أخذتها أم اخترعتها عن نفسها ؟ فقال : إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها وعرفت مواقع كلامها وقام في عقولها علله ، وإن لم يُنقَل ذلك عنها ، واعتللتُ أنا بما عندي أنه علة لما علته منه . فإن أكن أصبتُ العلة فهو الذي التمست . وإن تكن هناك علة له فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دارًا محكمة البناء ، عجيبة النظم والأقسام ، وقد صحَّت عنده حكمة بانيها ... قال : إنما فعل ذلك هكذا لعلة كذا وكذا ، ولسبب كذا وكذا ... فإن سنح لغيري علة لما علته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأتِ بها"[١] .

والعلة ليست كالسبب على ما يرى ابن جني (ت٣٩٢هـ) لأن العلة توجب الحكم إن لم يوجد مانع ، والسبب يجوز معه الحكم ؛ إذ قد يرد عليه مانع يؤدي إلى تخلف المسبَّب عنه ، قال : "اعلم أن أكثر العلل عندنا مبناها على الإيجاب بها ، كنصب الفضلة أو ما شابه في اللفظ الفضلة ... وضرب آخر يُسمَّى علة وإنما هو في الحقيقة سبب يجوِّز ولا يوجب . من ذلك الأسباب الستة الداعية إلى الإمالة هي علة الجواز لا علة الوجوب ألا ترى أنه ليس في الدنيا أمر يوجب الإمالة لابد منها ، وإن كل مُمال لعلة من تلك الأسباب الستة لك أن تترك امالته مع وجودها فيه فهذه إذن علة الجواز لا علة الوجوب"[٢] . وبهذا يظهر لنا الفرق بين العلة والسبب ، وأن ما كان موجِبًا يُسَمَّى علة وما كان مجوِّزًا يُسمَّى سببًا .

---

(١) الإيضاح في علل النحو : أبو القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) ، تحقيق : الدكتور مازن المبارك ، ط٣ ، دار النفائس ، بيروت (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) : ٦٥-٦٦ .

(٢) الخصائص : أبو الفتح عثمان ابن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الكتب العلمية - القاهرة (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م) : ١٦٤/١ .

والعلة النحوية على ثلاثة أضرب[1] :

١- العلة التعليمية (العلة الأولى) : هذه العلة في جوهرها تفسير للواقع اللغوي إذ ترصدها الدراسة الوصفية للظواهر اللغوية ، فتتبين العلاقات التركيبية للصيغ والمفردات في الجمل والأساليب وتتضح الوظائف النحوية . والذي حدا بالنحاة للأخذ بهذه العلة رغبتهم في تبسيط القواعد النحوية فبها يُتوصَّل إلى كلام العرب . ومن هذا النوع من العلل قولنا : (إنَّ زيدًا قائم) ، إن قيل : بم نُصِبَ زيدٌ ؟ قلنا : بـ (إنَّ) ؛ لأنها تنصب الاسم وترفع الخبر وهكذا سمعت عن العرب .

٢- العلة القياسية (العلة الثانية) : وهذه تحاول أن تربط بين الظواهر المختلفة بملاحظة ما بينها من صلات ، وأخذ النحاة بها سعيًا لطرد الأحكام . ومثالها أن يُقال لمن قال نصبت زيدًا بـ(إنَّ) في قوله (إنَّ زيدًا قائم) : ولِمَ وجب أن تنصب (إنَّ) الاسم ؟ فالجواب على ذلك بمقتضى هذه العلة أن يقول : لأنها وأخواتها ضارعت الفعل المتعدي إلى مفعول ، فحملت عليه فأعملت إعماله لما ضارعته فهي تشبه من الأفعال ما قُدِّم مفعوله على فاعله .

٣- العلة الجدلية النظرية (العلة الثالثة) : أما هذه العلة فتبدأ بعد العلتين السابقتين وهي تعليل لهما ، وتأييد لهما عن طريق التبرير المنطقي ؛ إذ إنها تأتي من الإحساس بضرورة منطقة الظواهر والقواعد والعلل جميعًا . وهي على ما مثلنا به أعلاه أن يُقال : من أي جهة شابهت هذه الحروف الأفعال ؟ ولم شابهت ما قُدِّم مفعوله على فاعله وهو ليس بأصل ؟ وما الذي دعا إلى إلحاقها بالفرع دون الأصل؟ فالجواب الذي يُعتَلُّ به عن أي من هذه المسائل هو علة ثالثة وداخل في الجدل والنظر .

وإذا كان هذا التقسيم قد سار عليه قسم من النحاة ، فلغيرهم تقسيمات أُخَر مختلفة ؛ فقد جعل ابن السرَّاج (ت ٣١٦هـ) العلة على قسمين ، قال : "اعتلالات النحويين ضربان : ضرب منها هو المؤدي إلى كلام العرب ، كقولنا : كل فاعل مرفوع وكل مفعول به منصوب، وضرب يسمى علة العلة مثل أن يقولوا : لم صار الفاعل مرفوعًا والمفعول

---

(١) الإيضاح في علل النحو : ٦٤-٦٥ .

منصوباً"[1] ، فهو يرى أن تعليل العلة بعيد عن تعليم كلام العرب ، وإنما شأنها أن تظهر الحكمة فيما وضعت من أصول [2] .

والذي يبدو من قول ابن السراج أن العلة الأولى علة تعليمية ؛ إذ تؤدي إلى كلام العرب ، أما علة العلة فتسميتها بذلك "تجوُّز في اللفظ فأما في الحقيقة فإنه شرح وتفسير وتتميم للعلة"[3].

كما قسَّم السيوطي العلة (ت٩١١هـ) إلى علة بسيطة وعلة مركَّبة في قوله : "العلة قد تكون بسيطة ، وهي التي يقع التعليل بها من وجه واحد كالتعليل بالاستثقال أو الجوار والمشابهة ، ونحو ذلك . وقد تكون مركَّبة من عدة أوصاف ؛ اثنين فصاعدًا ؛ كتعليل قلب (ميزان) بوقوع الواو ساكنة بعد كسرة ؛ بل مجموع الأمرين"[4] فالعلة هي السكون بعد الكسر معًا ، وليس السكون مجرَّدًا أو الوقوع بعد الكسر فقط .

العِلَّة والسببية في الاستعمال اللغوي :

إن الفعل عندما يقع لابد له من فاعل قد أحدثه ولهذا الفاعل دافع أو غرض حمله على إحداث فعله ، وقد يعبر عن ذلك الدافع أو الغرض ، فيعلل به – أي بالتعبير – إحداث ذلك الفعل وإيقاعه ، كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ (إبراهيم :٣٠) فأئمة الكفر قد اتخذوا آلهة من دون الله من الملائكة والجن والإنس ، ولابد أن يكون لهم من وراء فعلهم هذا غرض يسعون لتحقيقه ، أو دافع دفعهم إليه ، والآية الكريمة قد وضحت ذلك ؛ إذ علل اتخاذهم الأنداد بقوله : ﴿ليضلوا عن سبيله﴾وهو قصدهم وغرضهم من فعلهم . وكقوله عزَّ وجل على لسان امرأة العزيز : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ (يوسف : ٥٣) إذ نفت البراءة عن نفسها ، وسبب نفيها هذا هو أن النفوس جميعًا إلا ما رحم الله تأمر بالسوء، لذا علَّلت نفيها بذكر هذا السبب .

---

(١) الأصول في النحو : أبو بكر محمد بن السراج ، تحقيق : عبد الحسين الفتلي ، ط٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م) : ١ / ٣٥ .

(٢) المصدر والصفحة أنفسهما .

(٣) الخصائص : ١ / ١٧٣ .

(٤) الاقتراح في علم أصول النحو : جلال الدين السيوطي ، قرأه وعلق عليه : الدكتور محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م) : ٢٧٩ .

إن أغلب النحاة القدماء ذكروا العلة والسبب بمعنى واحد ؛ إذ لم يفرقوا بينهما فذكروا أن اللام للتعليل أو لام العلة أو أنها لام السبب أو السببية[1]، كما قيل مثل ذلك في الباء و(في) ، ثم إنهم قد يذكرونهما – أعني مصطلحي العلة والسبب– معًا مترادفين متعاطفين أو يبدلون أحدهما مكان الآخر .

والزمخشري قد ميَّز – عرضًا – بين نوعين من العلة : الأول : أن تكون فيه دالة على الغرض ، والثاني ليس كذلك ، قال في تفسير قوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا) (المدثر: ٣١): "فإن قلت : قد علَّل جعلهم تسعة عشر بالاستيقان وانتفاء الارتياب وقول المنافقين والكافرين ما قالوا . فهب أن الاستيقان وانتفاء الارتياب يصحُّ أن يكونا غرضين فكيف صحَّ أن يكون قول المنافقين والكافرين غرضًا ؟ قلت : أفادت اللام معنى العلة والسبب ، ولا يجب في العلة أن تكون غرضًا ، ألا ترى إلى قولك : خرجت من البلد لمخافة الشر ، فقد جعلت المخافة علة لخروجك ، وما هي بغرضك"[2] . فنلاحظ أن العلة والسبب عنده هنا بمعنى واحد . على أن هناك تقسيمًا مماثلًا لهذا فيما نُقِل عن الرضي ؛ إذ جعل الحامل على الفعل غرضًا : وهو متقدِّم عنه تصورًا متأخِّر عنه في الوجود ؛ وما لا يكون غرضًا وهو ما تقدَّم وجوده على الفعل [3] . ومثله أيضًا جاء في حاشية الصبَّان (ت١٢٠٦هـ) : "علة الفاعل أي الباعث على

---

(1) رصف المباني في شرح حروف المعاني : الإمام أحمد بن عبد النور المالقي (٧٠٢هـ) ، تحقيق أحمد محمد الخراط ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق(١٣٩٤هـ) : ٢٢٣ ، الجنى الداني في حروف المعاني : الحسن بن قاسم المرادي ، تحقيق : فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١ (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) : ٣٩ – ٤٠ .

(2) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧ : ٥٣٨هـ) ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، مكتبة العبيكان - الرياض ، ط١ ، (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م) : ٦ / ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(3) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب : رضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي النحوي (ت٦٨٨هـ)، تحقيق : الدكتور حسن الحفظي ، ط١ ، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م) : ١/ ٦٠٧ – ٦١٤ – ٦١٥ .

الفعل قد تكون غرضًا نحو : جئتك جبرًا لخاطرك ، أو لا نحو : قعدت عن الحرب جبنًا" [١] .

وكل ذلك من دون تفريق بين المصطلحين .

ومما يؤكد عدم وضوح معنى المصطلحين في أذهان قدماء النحاة أنهم لم يفرقوا بينهما في دراستهم النظرية والتطبيقية ؛ ذلك أن الإجماع المزعوم على أن اللام تكون للعلة يُفهَم منه أنهم فهموا السبب على معنى مختلف فلم يقولوا أنها للسبب ، والحال أن كثيرًا منهم سمَّاها لام السبب أو السببية [٢] ، كما أنهم يقولون أحيانًا إن حرفًا أفاد التعليل وفي أحيان أخرى إنه أفاد السببية ، من ذلك مثلًا قول الأشموني على(في) السببية : بأنها تُسمَّى التعليلية أيضًا[٣].

وتصريحهم بأن التعليل والسبب عندهم شيء واحد [٤].

فإنهم أطلقوا لفظ السببية أو السبب الذي هو بمعناها على ما يفيد التعليل ، ولهذا قالوا إن "التعليل والسبب شيء واحد"[٥] ولم يطلقوا لفظ التعليل على ما يفيد السببية ، فلم يطلقوا على فاء السببية : فاء التعليل ، أو على سببية التركيب الشرطي تعليلًا . ولكن حروف التعليل قد يطلقون عليها مصطلحي السبب أو السببية كما مر .

ثم إن نوعي العلة المشار إليهما - التعليل بالسبب والتعليل بالغرض - يماثلان ما نقله الصبان عن الشيخ يحيى في تفريقه بين العلة والسبب ، فالعلة عنده مُتأخِّرة في الوجود متقدمة في الذهن وهي العلة الغائية والغرض ، أما السبب فهو مُتقدِّم ذهنًا وخارجًا [٦] .

والغرض(العلة الغائية) مثل قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (إبراهيم : ٣٠) فالإضلال عن السبيل هو الغرض ، ووجوده في الخارج وتحققه مُتأخِّر عن (جعلهم أندادًا لله) ، وهو – أعني الإضلال – سابق ومتقدم على (جعل الأنداد) في الذهن والتصور،

---

(١) حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (ومعه شرح الشواهد للعيني): محمد بن علي الصبان (ت١٢٠٦هـ) ، تحقيق : طه عبد الرءوف سعد ، المكتبة التوفيقية – مصر (بدون تاريخ) : ٢ / ١٧٩.

(٢) رصف المباني : ٢٢٣ .

(٣) شرح الأشموني : ٢ / ٣٢٧ .

(٤) حاشية الصبان : ٢ / ٣٢٩ .

(٥) حاشية الصبان : ٢ / ٣٢٩ .

(٦) حاشية الصبان : ٢ / ٣٢٩ .

ذلك أن الإضلال هدف وغرض قد تصوَّروه في العقل والذهن ثم سعوا إلى تحقيق مرادهم بأن جعلوا لله أندادًا ، وهذا – على ظنِّهم – ما سيحققه لهم في الخارج والواقع.

أما السبب فمثل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام : ١٥١) فالإملاق سبب دفع الفاعل لإيقاع فعله وهو القتل ، وقد تقدَّم عليه ذهنًا وخارجًا .

إذن فالغرض (العلة الغائية) هي الغاية المُرادة والنتيجة المبتغاة ، والسبب عامل مُؤثِّر ومُسبِّب ، وعليه فإن الإضلال غاية مُرادة ونتيجة مبتغاة ، والطمع في المعروف عامل مؤثر في إيقاع المجيء وسبب له .

ونستطيع بناءً على كل ما تقدم أن نجعل العِلَّة قسمين : الغرض (العلة الغائية) والسبب .

فالغرض : هو الأمر المراد تحقيقه والباعث على إيقاع الفعل ، وهو مُتقدِّم عليه في الذهن والتصور ، مُتأخِّر عنه في الخارج . ومن ثَمَّ فالغرض قد يكتنف سببين ومسببين ، ذلك أنك لو قلت : (جئتُ لأتعلم) فقد جعلت(التعلم) غرضًا لك ، فهو في الذهن سابق للمجيء ، ومسبِّب له . والمجيء سابق للتعلم في الخارج ومُسبِّب له .

والسبب : هو العامل المؤثِّر والمسبِّب ، وهو مُتقدِّم – غالبًا – على المسبَّب في الذهن والخارج . واستعملت لفظ (غالباً) حيث إنه -السبب- قد لا يتصف بكونه مُتقدِّمًا ذهنًا وخارجًا ؛ إذ قد يكون مُطلَق الزمان ، كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة: ١٦٨) ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (يونس : ٦٥) ، وأيضًا قوله : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف : ٥٣) فكون الشيطان عدوًّا لهم ، وأن العزة لله جميعًا ، وأن النفس أمارة بالسوء ، أسباب لما قبلها ، وهي لا تختص هنا بزمن بعينه .